

البابا إسكندر السادس

أنتخب (روديريجو بورجيا) بابا عام ١٤٩٢ ، واختار اسم اسكندر السادس ، وانطلقت الأفراح في روما ، ونشرت من النوافذ وفوق الأعلام صورة الثور طغراء « أسرة بورجيا . وهتف الجماهير بما يذكرنا بأسلافنا في مصر القديمة حين كانوا يعثرون على العجل أيس بصفاته ولون جبهته وهتفت الجماهير « إيجيا بورجيا ، يجيا الكسندر » .

كان أهل روما لا يعرفون شيئًا عن البابا الجديد ، ولو عرفوا المصائب التي تنتظرهم من هذا البابا الذي يستحق اللعنات على مدى الزمان لاتخذوا الحيطة منه . ولكنهم لم يعرفوا عنه إلا أنه رجل ممتاز بكياسته وطلعته ، ولطف وسامته ، وعظمة محضره . وهو إلى كل هذا خطيب رائع ، وإنسان حيوب ، لامع في حشود الاحتفالات دينية أو مدنية ، وصفه رجل هيوماني وقد رآه في موكبه المتجه إلى قصر اللاتران ، ممتطيًا جوادًا أبيض ، فأهلًا على الناس بحبته العريضة وجلال بحياه ، يبارك الجماهير يمنة ويسرة . تحوطه الجلالة مع حلو الملفظ ، معسول اللسان ، جذاب للنساء بطلعته .

ولقد أثبت وهو كاردينال أنه رجل قدير ، لم يبد عليه أومنه علامة قسوة ، أو خداع : فإذا كان زير نساء فأمر ذلك شائع بين بابوات ذلك العصر ، أخلف عددا من البنين والبنات ، وكل هذه الصفات الظاهرة فيها روح العصر العجيب ، ضرى عليها الشعب ، لأن رأس الكنيسة الكاثوليكية ، عاهل ذنوبى تعو له رعوس الملوك والأباطرة . قليل من الكبراء عرف بعض دخائله . قال ملك نابولى لقرينته ، وهويكتم أساه : لقد جاءنا بابا مفسدة أى مفسدة ! سوف يعم ضرره على مجموع الكاثوليكية ، هذا إلى أنه أسباني « ماراني » (بمعنى أنه من أصل مغربى منتصر) ولعل ما طفاً على وجه ذنوبه أنه عين منذ انتخابه ثمانية عشر كاردينالا ، كلهم أسبان ، وبينهم خمسة من أسرته .

وبغير دخول فى تفاصيل انتخابه ، تكفى الإشارة إلى أن « المجمع المقدس » . وهو مجموع الكاردينالات بمثابة أمراء الكنيسة ، صرفوا كلهم ، فيما عدا رودريجو بورجيا ، من حرمواهم فى انتخابات البابا السابق على الكسندر ، ثمناً لغطاء الرأس الكردينالى ، « حلواناً » للبابا المتوفى ، فى مقابل نواهم رتبة الإمارة الإكلروسية ، أى الكاردينالية . وفرصتهم فى استرداد ما صرفوه تبيأت فى انتخاب البابا الجديد ، وقد تم لهم ذلك ، فالمرشح مضمون مالياً أن يجرى عليهم عطاء ، وكل منهم طامع فى وظيفة تجرى عليهم المال جزافاً . ورودريجو بورجيا ، إسكندر السادس أكثر المرشحين ثراء ، وأقواهم شخصية ، وأذكاهم ، وأكبر رجل دنيا بينهم . وكان بورجيا عليماً

بأطماعهم ، فاستعد لها بحساب دقيق : أحدهم يطعم في أن يعين
مستشاراً مقرباً ، والثاني سدد بصره وبصيرته إلى الانتفاع بقصور
البورجيا في روما - فالبابا يعيش في القصر الرسمي حتى وفاته .
والثالث أن يتولى ديراً كبيراً بأبراجه العالية ، والكاردينال الرابع
يطعم في أن يعيش رئيساً لأساقفة بورتو ، حتى يسكن قصرها المنتفع
بأعلى الأبنية . أما الأقل أهمية في أعضاء الجمع . فقد أوفد إليهم
صاحباً ليتولى أمر أربعة بغال مثقلة بالذهب الرنان يوزعه عليهم
حسب اجتهادهم في الانتخاب .

وتخلف خمس كاردينالات عن المشاركة في الانتخاب ، وعلى
رأسهم عدو لدود لبورجيا .

إن سمعة الكسندر السادس - بعد أن عرفت رذائله وجرائمه -
أثارت الكره ، وأضيف إليه التخوف من ابنه العاق تشيزارى
بورجيا ، وكان أسوأ من أبيه . ويمكن تصور الإجماع على لعن الأب
بعد وفاته .

ومع كل هذا ، قال المؤرخ الفلورنسى الكبير جينشاردينى :
« مات البابا الكسندر وهو في أعلى مراق المجد والثراء . ويقتضى الحق
أن نقول بأنه كان رجلاً كبير العقل ، صادق الحكم والتقدير » .

ويقتضى الحق أن أتم كلام المؤرخ الشهير : « ولكن هذه
الصفات الطيبة ، فاقتها سواته ، فعجائته الخاصة كانت في حضيض
الفحش والفجور ، بلا حجل ولا إحساس بالحقائق ، ولانفاذ عنده

لوعود وعد بها ، ولا اعتبار عند رأس الكنيسة الكاثوليكية بمعنى الدين ، طماع مفتوح الشهية لكل اغتصاب على قسوة ووحشية بدائية . كتب سفير البندقية : « كل ليلة كان يعثر في روما على أربعة إلى خمسة قتلى من الإكليروس وغيرهم » . وبينما كان البابوات يخطبون الناس لحرب صليبية ضد العثمانيين ، كان إسكندر السادس يَحُصُّ السلطان بايزيد على غزو أوروبا ليخلصه من الأمراء الذين يقاومون مؤامراته في صالح أولاده . والشعور الأخوي القائم بين البابا والسلطان العثماني . كان يتعلق بالتجار بالأمير العثماني « جيم » وهو أخُ لبازيزيد ، وابن لمحمد الفاتح ، مما دفع الشاب المسكين على الهرب إلى بلاد النصرى ، فاعتقله إسكندر مقابل أربعين ألف دوقية يدفعها الباب العالي مقابل هذا الاعتقال ، وهذا غير ما كان يصدق به السلطان على البابا إنؤشتى من هدايا ، مثل الحربة التي قتل بها الرومان الملكة الزباء (زنوبيا) . فأخذها إنؤشتى وأقام حولها مقصورة تعنى التقديس ، بل أمر أن يقوم رسمه على مقربة من ذلك الأثر . وبقي الأمير « جيم » في روما ، وكان يعيش حياته الإسلامية داخل القاتيكان ، وله بلاطه الخاص .

وهناك رسائل بالمحفوظات يتبادل فيها السلطان بايزيد والبابا إسكندر السادس توكيد الصداقة الحميمة بينهما . وفيها كان عظمة السلطان يرجو صديقه البابا أن ينهى حياة الأمير البائس ، ويعده بدفع ثلاثمائة ألف دوقية في مقابل هذا الخلاص ، ويضيف إليها الرداء الذي كان على السيد المسيح ، وكان الحرس الروماني يلعب

أفراده بالنرد ليكون الرداء من حق الكاسب . ووصلت الأموال والرداء إلى أعداء البابا . وكان البابا قد عقد حول الأمير العثماني صفقة بتسليمه إلى ملك فرنسا « شارل السابع » في معسكر جيشه بين روما وناپولي .

كان البابا الكسندر السادس أسير عشيقتين : فانوترا ، وهي عقيلة زوج أول ، ثم ثان . و« لابلأ » وكانت زوجة أوسيو أورسيني . وأمر هذه السيطرة النسائية كان معروفاً . وقد قبلت العشيقتان أن تعيشا حياة أشبه بالحریم السلطاني ؟ ! وكانت معها وصيفة شرف : هي السيدة أوريانا دي ميلا .

فهم هذا الوضع العجيب لرأس الكتلركة يقوم على أساس أن نظرتة ونظرة الشعب إليه تتغلب فيها الملوكية العلمانية على البابوية الروحية . وهذا يعطى صورة من سوءات المجتمع الإيطالي ، وخاصة في القرن السادس عشر . وقد أقام ابنه الأكبر الحرام - من العشيقة فانوترا دوفا لجانديا ، وابنها الأصغر زوجه بالأميرة ابنة ملك أراجون (الأسباني مثله) هذا وكان البابا إنوتسنتي - خلف أسوار الفاتيكان - يتصيد من وقت لآخر المجرمين القادرين على تقديم « المعلوم » . وكان ابنه يتأهب للهُف المال من خزائن الكنيسة ، في حالة وفاة أبيه . وقد أشيع ذات مرة موت إنوتسنتي ، فحاول ابنه تنفيذ غرضه ، ولكن المحيطين بالبابا لم يُمكنوه . فحاول خطف الأمير العثماني « چم » ، فهو رأس مال طيب ، إذبايع لواحد من الأمراء القادرين على الدفع . وجاء بعد إنوتسنتي ، البابا إسكندر (١٤٩٢ - ١٥٠٣)

فمضى في أول اهتمامه بصون الأمن . ودفع مرتبات المستخدمين كاملة .
وما كان أكثر قصص البورجيا مَحَلِّيًا بتحقيق أول هدف له ، ولابنه
تشيزارى بورجيا ، هو إخضاع كل الحكومات لتابعة للكنيسة ، أى
لسلطان البابا ، وكان يحكمها أمراء صغار ، وكلهم تابعون كإقطاع
للبابوية . ثم تخلص البابا من زمرة أسرفى أورسبى وكولوناً . ولم
تتوقف فصول هذا الخلاص إلا بموت البابا مسمومًا . ولم يكن
إسكندريهيم بالرأى الخارجى ، فى غرب أوربا ، كل ما يهيمه هو
إثارة الرهبة والفرع حوله ، حتى يفرض أمره على سكان المناطق
القريبة وكان قديرًا على كسب بعض الأمراء الأجانب ، حتى إن
الملك الفرنسى لويس الثانى عشر كان يساند إسكندر بورجيا بشدة .
أما سكان فلورنسا فلم يكونوا على علم بما جريات الأمور وسط
إيطاليا . إنما فى ظرف صعب واحد كان متوقعًا بسبب حملة الملك
شارل الثامن على إيطاليا ، مارا بروما ، فلم يحدث شىء مما سمع بأنه
سوف يطالب بعقد اجتماع كنىسى لكى يقرر شيئًا يختص بإمكان تغير
البابا ، ونقله إلى فرنسا .

ويبدو لى أن الناحية الإدارية ، وقوة العزيمة ، مع الجاذبية
العجيبة فى شخصية إسكندر السادس ، إن كانت لا تعفيه من
انسياق إلى شهواته ، ومن جرائمه وحرصه على جمع المال بكل
الوسائل الشريفة وغير الشريفة ، فهى تؤكد أنه كان من أقدر الناس
على الإدارة والشئون الاقتصادية نتيجة خبرات شبابه فى الوظائف
التي تقلدها .

كان مركز الضعف في هذه الشخصية العجيبة هو حبه لابنته تشيزارى بورجيا ، وهذا الابن الملعون استولى على أبيه ، وأفقده إرادته . وبذلك كانت أعمال الكرسي الرسولى مرسومة بهذه الانحيازية .

الحديث عن مصائب عصر إسكندر السادس طويل ، ولا أذكره إلا إضافة إلى شخصية ابنه المجرم الزنديق ، وحتى اهتمامى بهذه الناحية السلبية في عصر الرينسانس مرَّجعه عندى هو الكاتب والمؤلف والمياسى والدبلوماسى الأكبر في عصره ، ما كياڤيللى . فقد طالعت أكثر من دفاع عن كتابه « الأمير » فلم أقتنع . نعم كان تشيزارى أميراً ناجحاً ، بسبب ذكائه ، وحسن استعداده لما يؤديه . ولكن أن يدافع عنه إنسان طيب ، ورجل خبير ، وذوقلم أنيق ، بحجة أن تشيزارى أمثلة في إتقان مهنة الأمير الحاكم ، لا علاقة لها بهذا الإنسان الخفيف الذى جعل مكان اسم بورجيا في قائمة شياطين البشر . ولم أُدخِلْ في الموضوع شقيقته لوكريسيا ، ، فقد كانت امرأة ساحرة ، جميلة ، تزوجت أكثر من مرة . وفرض عليها الطلاق أبوها البابا ، لأنه جعل منها تجارة نفوذ ، فطلقها من زوج طيب ، عندما وجد فرصة لابنته الحسنة ، المغرمة بمجتمعات الأدباء والشعراء والموسيقين ، لكى تصبح بعدها أميرة « فيرارا » . ويبدو أن شخصيتها التى استخدمت في المسرح والأدب القصصى إبَّان العصر الرومانتيكى صورة بشعة ، مشكوك في صدقها .

ولنتقل الآن إلى صورة أقرب إلى مكارم الأخلاق ، والحرص

على الإصلاح الديني ، على يد سافونارولا ، فإن هذا الراهب العجيب ، وأصافه دائما بالرهيب ، كان الناثر الأكبر على فساد رجال الدين من أعلى مراتبهم إلى أسفلها ، ولكن الطبيعة لم تهبه القدرة على ثورة انتهت بإعدامه شنقاً ، وإحراق جسده علناً في الميدان الكبير بمدينة فلورنسا . وفي رأي أن مثل هذه الشخصية لا تظهر إلا في عصور التحولات الكبرى في المجتمع ، سواء في الممارسة الدينية ، أو في النظم السياسية .